التفكر في آيات الله الكونية
وهدي القرآن والسنة في ذلك وضوابطه

د . عبد المجيد بن محمد الوعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[1]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فهذه مباحث منتقاه من كتابي " الدلالات العقدية للآيات الكونية"، رأيت إفرادها لأهميتها، ومن أراد الاطلاع على المزيد فيمكنه الرجوع إلى أصل الكتاب.

وهذه المباحاث هي:

التفكر في الآيات الكونية وأهميته والهدي القرآني والنبوي تجاهها وضوابطه.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأمر بالتفكر في آيات الله الكونية، وأهميته.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الأمر بالتفكر في آيات الله الكونية.

المطلب الثاني: أهمية التفكر في آيات الله الكونية.

المطلب الثالث: الحكمة من الآيات الكونية.

المطلب الرابع: الآيات الكونية وتثبيت العقيدة.

المطلب الخامس: عبودية الكائنات لرب العالمين.

المبحث الثاني: الهدي القرآني والنبوي تجاه الآيات الكونية.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الهدي القرآني تجاه الآيات الكونية.

المطلب الثاني: الهدي النبوي تجاه الآيات الكونية.

---

(١) الأنعام: ١.

المطلب الثالث: تأييد الله لأنبيائه بالآيات الكونية.

المطلب الرابع: الآيات الكونية وأركان الإسلام.

المبحث الثالث: الضوابط الشرعية تجاه الآيات الكونية.

أسأل الله ﷻ أن ينفع بها، وأن يجعلها خالصة لوجه الكريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد المجيد بن محمد الوعلان

١٤٤٣/٤/٣

Awalaan@gmail.com

المبحث الأول

الأمر بالتفكر في آيات اللّه الكونية، وأهميته

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الأمر بالتفكر في آيات الله الكونية.

المطلب الثاني: أهمية التفكر في آيات الله الكونية.

المطلب الثالث: الحكمة من الآيات الكونية.

المطلب الرابع: الآيات الكونية وتثبيت العقيدة.

المطلب الخامس: عبودية الكائنات لرب العالمين.

المطلب الأول: الأمر بالتفكر في آيات الله الكونية

لقد أنعم الله ﷻ على بني آدم بنعم عظيمة سخرها لهم ليعرفوه بها -سبحانه-، فيعبدوه ويوحدوه، ويقوموا بمهمة الخلافة في هذه الأرض، ويحققوا الغاية التي من أجلها خلقهم الله ﷻ . وإن من أعظم هذه النعم نعمة العقل والتفكير التي هي خاصية من خصائص الإنسان التي يتميز بها عن سائر الجمادات والعجماوات.

وقد ورد الأمر بالتفكر في كتاب الله في آيات عديدة(١)، سواءً التفكر في الآيات المتلوة، أو الآيات المشاهدة، أو آلاء الله، أو سير الأنبياء مع أقوامهم وعاقبة الفريقين، أو التفكر في الدنيا والآخرة أو غير ذلك.

ونبَّه سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلى أن آياته المتلوة والمشاهدة، وآياته في آلائه ونعمه لا ينتفع بها إلا أولو العقول والألباب والتفكير الصحيح؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣)، في آيات كثيرة.

والتفكر في آلاء الله والسير المأمور به في القرآن الكريم هو: "سير القلوب والأبدان الذي يتولد عنه الاعتبار، وأما مجرد نظر العين وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار فغير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب"(٤).

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين—كتاب التفكر: ٥٠١/٤، ومفتاح دار السعادة: ٢٧٩/١.

(٢) الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤.

(٣) الرعد: ٣، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣.

(٤) تفسير ابن سعدي: ١١٠٦/٣.

﴿ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١].

"فالقرآن يحث بهذه الآيات الإنسان على التأمل والنظر في بديع صنع الله في السماء والشمس والقمر والليل والنهار والضحى والظهيرة والأصيل والغروب، وفي الأرض والجبال والبحار والأنهار والسهول والنبات والرياح والأمطار، وخلق الإنسان والحيوان وسائر الكائنات، وأن أحداً لا يمكنه حفظ نظام الكون إلا الله تعالى العلي القدير"[٢]، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٣].

فالله ﷻ يدعو عباده إلى التعرف عليه وعلى أسمائه وصفاته وآثارها عن طريقين:

أحدهما: بالنظر في آيات الله المشاهدة في الآفاق والأنفس، وما فيها من العظمة والحكمة والرحمة والإتقان، والتي تدل على خالقها سبحانه وعلى أسمائه وصفاته.

وقد جاء في القرآن الكريم ما لا يقل عن ثمانمائة آية كونية[٤]، بل أوصلها بعضهم إلى ما يربو على ألف آية[٥]، وبلغت حسب عد الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة ١٩٣٥ آية و١٧٤٤ حديثا[٦]، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة[٧].

والطريق الثاني: بالنظر في آياته المتلوة في كتابه العزيز.

---

(١) النحل: ١٢.

(٢) آيات الله في الكون – تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم لعبد الله شحاته: ٨١-٨٢.

(٣) النحل: ١٧.

(٤) الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: ٨١، وانظر: نماذج للآيات الكونية في القرآن: آيات الله في الكون: ٢٤-٣٧.

(٥) التفسير والمفسرون: ٢/٥٠٦.

(٦) انظر: فهرس الآيات الكونية في القرآن الكريم، وفهرس الأحاديث الكونية والطبية، رابطة العالم الإسلامي، هيئة الإعجاز العلمي.

(٧) قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بين المؤيد والمعارض: ١٠-١١، ١٣، ٩٩.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان هذا الأمر: "فالطريق الأول: النظر في مفعولاته، والثاني التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة، فالنوع الأول: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(٢)]، وهو كثير في القرآن.

والثاني: كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[(٥)]، وهو كثير أيضاً"[(٦)].

ولما سُألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن أعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي قال رسول الله ﷺ: « يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي». قُلت: والله إني لأحب قُرْبَكَ، وأحب ما سرك. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجْرَهُ[(٧)]، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيتهُ، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما راهُ يبكي، قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: « أفلا أكون عبداً شكورًا؟ لقد نزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها

---

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) آل عمران: ١٩٠.

(٣) النساء: ٨٢.

(٤) المؤمنون: ٦٨.

(٥) ص: ٢٩.

(٦) الفوائد لابن القيم: ٣١.

(٧) مَحْجِرُ العين: ما يبدو من النِقاب، انظر: الصحاح للجوهري: ٦٢٤/٢.

ولم يتفكر فيها: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[١] » [٢].

فالله ﷻ يقول في هذه الآية "تدبروا أيها الناس واعتبروا، ففيما أنشأته فخلقته من السماوات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقَّبت بينه من الليل والنهار فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا راحة لأجسادكم، معتبر ومدَّكر، وآيات وعظات"[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " النظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب إليه"[٤].

وبتدبر القرآن الكريم تحصل معرفة الله تعالى، ومعرفة عظيم سلطانه وقدرته، وتتحقق العبودية له وكيفية عبادته سبحانه، فيحصل الخشوع والخضوع والتذلل والرجاء والخوف الخ.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السماوات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف

---

(١) آل عمران: ١٩٠.

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: ٣٨٦/٢ برقم (٦٢٠)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم. وانظر: السلسلة الصحيحة: ١٤٧/١ برقم (٦٨).

(٣) تفسير الطبري: ٢٦٠/٤.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣٤٣/١٥.

(٥) يونس: ١٠١.

النبات، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[1]" [2].

فهذه الآية وغيرها كثير تدعو إلى الأخذ بأسباب العلم والإيمان، ومنها: المشاهدة والتأمل والتفكر في هذه المخلوقات العظيمة.

---

(١) يونس: ٩٦-٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/٤٤٩.

المطلب الثاني: أهمية التفكر في آيات الله الكونية

إن المتأمل في أحوالنا اليوم وأحوال الناس بعامة – لا أقول الكفار منهم بل الكثير من المسلمين – يرى البعد الشديد عن التفكير الصحيح النافع الذي يقود صاحبه إلى الخير في الدنيا والآخرة، وإنما نجد أن جل التفكير وقوته وكثافته قد وجه في ما لا ينفع في الآخرة؛ بل فيما يضر صاحبه هنالك من التفكير في شهوات محرمة أو في خواطر وشبهات وأماني باطلة ورديئة.

والموفق من وفقه الله ﷻ فصرف فكره وهمه في معرفة ربه سبحانه، وذكره وشكره وعبادته، والاستعداد للقائه في الدار الآخرة.

فالتفكر في خلق الله تعالى يزيد الإيمان في القلب ويقويه ويرسخ اليقين، ويجلب الخشية لله تعالى وتعظيمه، وكلما كان الإنسان أكثر تفكراً وتأملاً في خلق الله، وأكثر علماً بالله تعالى وعظمته كان أعظم خشية لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[١].

ولهذا كان السلف الصالح على جانب عظيم من هذا الأمر فكانوا يتفكرون في خلق الله ويتدبرون آياته، ويحثون على ذلك، يقول أحدهم: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فَهِمَ، ولا فهم إلا علم، ولا علم إلا عمل. ويقول الآخر: لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه[٢]؛ بل قد قال بعضهم: أن السفر في طلب العلم يشمل العلم بآيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر[٣].

قال ابن سعدي رحمه الله: " التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين"[٤]؛ ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود[٥].

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/٥٠٣.

(٣) المصدر السابق: ٢/٢٩٥.

(٤) تفسير ابن سعدي: ١/٢٧٠.

(٥) المصدر السابق: ١/٤٩٦.

ولأهمية التفكر في آيات الله الكونية نجد أن الله –تعالى– قد أقسم ببعضها تنبيها لأهميتها ونظامها وبديع صنعتها(١)، وهذا في آيات كثيرة.

والتفكر من العبادات القلبية الجليلة، وهو من أفضل أعمال القلب وأنفعها له(٢)، كما أنه أصل الطاعات ومبدؤها(٣). وهو سبيل المرء إلى العمل، وإدراك حقائق الأشياء، بل إن حياة المرء وسعادته تبع لأفكاره.

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وأعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكارا فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا، فحياتك طيبة سعيدة وإلا فالأمر بالعكس"(٤).

فإعمال الفكر فيما ينفع ويقرب إلى الله من أهم المطالب الدينية. وقد مدح الله عباده الذين يذكرونه قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، قائلين: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٥).

ولذلك نجد أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أعظم عباد الله تفكرا في آيات الله ومخلوقاته، ونبينا ﷺ أكملهم في ذلك حيث كان يتفكر في آيات الله ومخلوقاته.

فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه بات عند النبي ﷺ ذات ليلة، فقام النبي ﷺ من آخر الليل فخرج فنظر إلى السماء، ثم تلا هذه الآية في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا

(١) آيات الله في الكون: ٢٠، وانظر: التفكير فريضة إسلامية لعباس العقاد: ٨٢٩/٥.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢٨٤/١.

(٣) المصدر السابق: ١٨٣/١.

(٤) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة للسعدي: ٢٧.

(٥) آل عمران: ١٩١.

﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١]، ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ، ثم قام فصلى، ثم اضطجع، ثم قام فخرج فنظر إلى السماء فتلا هذه الآية، ثم رجع فتسوك فتوضأ ثم قام فصلى»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيه أنه يستحب قراءتها عند الاستيقاظ في الليل مع النظر إلى السماء لما في ذلك من عظيم التدبر، وإذا تكرر نومه واستيقاظه وخروجه استحب تكريره قراءة هذه الآيات، كما ذكر في الحديث والله سبحانه وتعالى أعلم"[٣].

وكان ﷺ يأمر بالتفكر فيقول: « تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله »[٤].

وكان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من التابعين يمتثلون هذا، وينظرون في ملكوت الله نظر تفكر واعتبار، ويتفكرون في آيات الله المشاهدة وآياته المتلوة، والتي تتضمن آيات الشرعية وآياته الكونية.

وقد وردت الآثار الكثيرة عنهم في ذلك، فقد سئلت أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن أفضل عبادة أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت: " التفكر والاعتبار"[٥].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[٦]، وعن الحسن البصري

---

(١) آل عمران: ١٩٠-١٩١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك: ١/٢٢١ برقم (٢٥٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ٢/١٤٥.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط: ٦/٢٥٠ برقم (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان: ١/٣٥٨ برقم (١١٩)، من حديث ابن عمر وقال: " هذا إسناد فيه نظر". قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في إحياء علوم الدين من أخبار- المطبوع مع إحياء علوم الدين-: ٤/٥٠٢: قلت: فيه الوازع بن نافع متروك، وأخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه أخر أصح منه. أ.هـ. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة- لما ذكر أسانيد الحديث-: ١٩١ برقم (٣٤٢): وأسانيدها ضعيفة؛ لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/٣٩٥ برقم (١٧٨٨): وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي والله أعلم.

(٥) كتاب الزهد للإمام أحمد: ١٩٨.

(٦) المصدر السابق: ٢٠٢.

رَحِمَهُ اللَّهُ : " أفضل العمل الورع والتفكر "[١]، وقال عامر بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: "إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر "[٢].

وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: "ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه"[٣].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ : " ونقل عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في رجل أكل فشبع وأكثر الصلاة والصيام، ورجل أقل الأكل فقلت نوافله، وكان أكثر فكرة أيهما أفضل ؟ فذكر ما جاء في الفكر: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قال: فرأيت هذا عنده أكثر -يعني الفكر- وهذا يدل على تفضيل قراءة التفكر على السرعة، وهو اختيار الشيخ تقي الدين، وهو المنصوص صريحا عن الصحابة والتابعين"[٤].

ومع هذا كله فقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آياته، ودلائل توحيده، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ : " يقول -جل وعز-: وكم من آية في السماوات والأرض لله، وعبرةٍ وحجةٍ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السماوات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرُّون بها معرضين عنها لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الأولوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كلَّ شيء فدبَّرها"[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/٢٢٠، وروضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم: ٣٠١.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٤٨.

(٣) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي، للمقريزي: ١٤٩.

(٤) تقرير القواعد وتحرير الفوائد لابن رجب: ١/١٣٤.

(٥) يوسف: ١٠٥.

(٦) تفسير الطبري: ١٣/٩٢.

وقال تعالى في ذم الغافلين عن آيات الله: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " يقول الله تعالى مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقائه شيئا، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها"[٢]، وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، فإن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر"[٣].

وعلى هذا فالتفكر دعوة قرآنية، وسنة نبوية، وآيات القرآن وسنة الرسول ﷺ مليئة بالدعوة إلى التفكر والتدبر في الآيات المسطورة، والآيات المنظورة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤].

---

(١) يونس: ٧-٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول ﷺ والصحابة والتابعين لابن أبي حاتم: ١٩٢٨/٦

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٢٢/٢.

(٤) النحل: ٤٤.

المطلب الثالث: الحكمة من الآيات الكونية

في القرآن الكريم ما يزيد على ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون، وتذكر مفرداته من السماوات والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والبحار والأنهار، والمطر والرعد والبرق [١].

وهذه الآيات الكونية وما تدل عليه من حقائق علمية، لم تذكر في القرآن الكريم لمجرد الذكر، أو من أجل بيانها للناس ودلالتهم عليها ابتداءً، وإنما هي سيقت مساقا تابعا للغرض والهدف الذي ذكرت في ثناياه، من الاستدلال بها على قضايا كبرى: كالألوهية والنبوات والبعث[٢].

فهذا الكون وعجائبه وتنوعه علامات بينة تثبت قدرة الله وحكمته ووحدانيته لمن يتفكر ويتدبر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الحكمة من هذه الآيات الكونية: " ولهذا يستدل سبحانه في كتابه بالحوادث تارة، وباختلافها تارة، إذ هذا وهذا يستلزم ربوبيته وقدرته واختياره، ووقوع كل الكائنات على وفق مشيئته، فتنوع أفعاله ومفعولاته من أعظم الأدلة على ربوبيته وحكمته وعلمه"...

ثم قال: "والمقصود أن تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك، وهو أيضا من موجبات الحمد، فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمه أيضا"[٣].

وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ لبعض الآيات الكونية حكماً خاصة بها بالإضافة إلى الحكم السابقة

---

(١) انظر: عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم لمحمد السيد راضي جبريل، ضمن بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١: ٨١.

(٢) انظر: سمات الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم للشيخ ناصر الماجد، موقع ملتقى أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية، ١٤٢٥: ٥، Http://www.tafsirmail.com/index.php?subaction =showfull&id=1079908381&archive=&start_from=&ucat=1&do=maqalat

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم: ٢١٤-٢١٥.

من كمال القدرة والدلالة على الربوبية والألوهية والبعث، ومن ذلك الحكمة في خلق النجوم، قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[٢].

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: "خلق هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به"[٣].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع الكائنات، علم أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مدبرات مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه"[٤].

---

(١) النحل: ١٦.

(٢) الملك: ٥.

(٣) رواه البخاري معلقاً: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم: ٦١٤.

(٤) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القران للسعدي: ٣٢.

المطلب الرابع: الآيات الكونية وتثبيت العقيدة

إن العقيدة الصحيحة هي أعظم ما جاءت به الرسل، وكل خير في الدنيا والآخرة متوقف على تحقيقها كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١]، لذا عني الكتاب الكريم والسنة المطهرة بتثبيتها في النفوس بالدلائل والبراهين العقلية والنقلية[٢].

وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن مكث يبلغ رسالة ربه ثلاثا وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة بمكة، كانت مهمته الأولى الدعوة إلى العقيدة الصحيحة وتثبيتها، وما يتصل منها بالله سبحانه وتعالى أو التدليل على صدق الرسول ﷺ أو ما يتصل منها باليوم الآخر.

ولذلك نجد أن غالب السور المكية تناولت البراهين والأدلة ليقتنع بها ذوو العقول في تثبيت العقيدة.

قال تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[٣].

فأقسم الله سبحانه بهاتين الآتين — الضحى والليل- وهذا دليل على قدرة خالقها، وربط بين آيات الكون وبين التأكيد على أن محمداً ﷺ لم يدْعه ربه، ولم يجفوه، بل بين أنه ربه[٤]، وفي

---

(١) النحل: ٩٧.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم: في بيان أن القرآن جمع بين الأدلة العقلية والنقلية، والاستدلال بالآيات الكونية على التوحيد وإفراد الله بالعبادة مما فيه تثبيت للمؤمنين: ٢/٤٦٠-٤٩٤، ٦٨٤، وحماية المجتمع المسلم من الانحراف الفكري د. عبد الله الزايدي، مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، العدد (٧٧): ٢٣٩.

(٣) الضحى: ١-٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/٥٥٨.

هذا تثبيت له.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[(١)].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ أي شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده[(٢)].

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها"[(٣)]،"وأن الذي أحياها سيحي الموتى، كما أنه قد قرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المنكرون ذلك – ولن يقدروا على إنكاره – فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟"[(٤)].

ولقد تنوعت أساليب القرآن في تثبيت العقيدة من خلال الآيات الكونية، من ذلك:

أولاً: استخدم القرآن السؤال كطريقة للإقناع والوصول إلى الحق الذي هو التوحيد ونبذ

---

(١) الحج: ٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٦/١٢.

(٣) تفسير ابن سعدي: ١٠٩٠/٣-١٠٩١ باختصار.

(٤) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي: ٣٠.

الباطل الذي هو الشرك، مستدلاً على ذلك بذكر بعض الآيات الكونية، فقال تعالى منكرا على الكفار شركهم بالله في عبادته في الوقت الذي يقرون فيه بربوبيته[١]: قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٤].

ثانياً: تصديق خبر الأنبياء بحصول بعض الآيات الكونية.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقتين. فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر[٥].

ولذلك ترى المشركين يطلبون من النبي ﷺ تصديق خبره ببعض الآيات الكونية، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: " وقالت المشركون من قريش: هلا أنزل على محمد آية من ربه، تكون حجة لله علينا، كما جعلت الناقة لصالح، والمائدة آية لعيسى؟ قل يا محمد:

---

(١) السؤال في القرآن الكريم وأثره في التربية والتعليم لأحمد ضليمي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، العدد (١١١): ٣٨.

(٢) العنكبوت: ٦١.

(٣) العنكبوت: ٦٣.

(٤) الزخرف: ٨٧.

(٥) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر: ٤/٢١٥٨-٢١٥٩ برقم (٢٨٠٠، ٢٨٠٢).

(٦) العنكبوت: ٥٠.

إنما الآيات عند الله، لا يقدر على الإتيان بها غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما أنا نذير لكم، أنذركم بأس الله وعقابه على كفركم برسوله، وما جاءكم به من عند ربكم ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: قد أبان لكم إنذاره"(١)، ثم إن الله ﷻ "لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك"(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(٣).

ومن ذلك المجلس الذي جلس فيه المشركون يطلبون الآيات على وجه العناد والكفر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٤).

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له،"لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا"(٥).

ثالثاً: بيان عبودية جميع الكائنات لله تعالى بما في ذلك الآيات الكونية، فلا يستوحش السائر إلى الله من قلة السالكين على الطريق فإن جميع المخلوقات العلوية والسفلية تسجد وتسبح

---

(١) تفسير الطبري: ١١/٢١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٢٨/٣.

(٣) الإسراء: ٥٩.

(٤) الإسراء: ٩٠-٩٣.

(٥) معالم التنزيل للبغوي: ٧١٤/٢-٧١٧، وانظر: تفسير ابن كثير: ٦٧/٣.

لله ﷻ إلا من حق عليه العذاب، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

رابعاً: بيان تفرد الله ﷻ بخلقها وحكمته وتصرفه فيها، فللّه ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته[2].

قال ابن سعدي رحمه الله في الطرق الكلية إلى العلم بأنه لا إله إلا الله، وهي من أهم الأمور في تثبيت العقيدة، وأنها ثمان طرق وذكر منها: " الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية".

ثم قال: "الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه"[3].

خامساً: إجابة الله ﷻ لسؤال أولياءه عن طلبهم بعض الآيات الكونية.

فإن مما يثبت عقيدة المؤمن أن يريه الله ﷻ بعض آياته الكونية، وقد سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه آية من آياته الكونية، يريد أن يطمئن قلبه بها، كما أخبر الله عنه: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ

---

(١) الحج: ١٨.

(٢) انظر: تفسير البغوي: ٣/٢٥٤-٢٥٥، تفسير ابن كثير: ٣/٢٦٣-٢٦٤، تفسير ابن سعدي: ١/٤١٨.

(٣) تفسير ابن سعدي: ٤/١٦٥٨.

سَعۡيَـٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[١].

فالمسألة من قبل إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة شك، لكن من قبل زيادة العلم؛ فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان[٢].

وقال عن الحواريين: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[٣].

قال ابن كثير رحمه الله: " ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ أي ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك، ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

وقوله: ﴿وَءَايَةٗ مِّنكَۖ﴾ أي دليلا تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك دعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك"[٤].

سادساً: سرد الآيات الكونية والإشارة إلى الاعتبار بها.

فقراءة الآيات التي تتحدث عن إثبات ربوبية الله وألوهيته، وتؤيد ذلك بالأدلة العقلية،

---

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي: ٣/ ١٥٤٦،، شرح السنة للبغوي: ١/ ١١٤-١١٥، تفسير ابن سعدي: ٤/٢٠١٧.

(٣) المائدة: ١١٢-١١٤.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢/١٢٠، وانظر: تفسير القرطبي: ٦/٣٦٥، وتفسير ابن سعدي: ١/٤٥٧.

وتؤكده بسرد الآيات الكونية مما يزيد الثبات والإيمان، ويدفع الوسوسة والشكوك والأوهام.

ولذلك يرشد الله تعالى إلى الاعتبار بما في الآفاق والأنفس من الآيات المشاهدة كخلق السماوات والأرض وما فيهما، وأن كل ذلك دال على حدوثها، وعلى وجود خالقها وحكمته[١]، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[٣]. ولما سمع هذه الآية جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه وما تضمنته من بليغ الحجة، قال: كاد قلبي أن يطير[٤]، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٥].

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٣/٣٣١-٣٣٢، وتفسير ابن كثير: ٣/٤١٩، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ١٨/٦٤، ٢٠/٢٣١،٢٢٣.

(٢) العنكبوت: ١٩.

(٣) الطور: ٣٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الطور: ٩٥٤ برقم (٤٨٥٤).

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً: ٧٦٢ برقم (٤٠٢٣).

المطلب الخامس: عبودية الكائنات لرب العالمين

الله ﷻ هو خالق كل شيء وربه ومليكه، وهذه الربوبية للمخلوقاته على نوعين: ربوبية عامة، وربوبية خاصة.

قال ابن سعدي رحمه الله في بيان أنواع ربوبية الله لمخلوقاته: "كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ومتعلقاتها ولوازمها. وهي على نوعين:

ربوبية عامة: يدخل فيها جميع المخلوقات: برها وفاجرها؛ بل مكلفوها وغير المكلفين، حتى الجمادات. وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاجه أو تضطر إليه في بقائها، وحصول منافعها ومقاصدها فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه، فيربيهم بالإيمان الكامل، ويوفقهم لتكميله ويُكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاقَ الرذيلة، وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى. وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أُطلقت ربوبيته تعالى فإن المراد بها المعنى الأول، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٢)]، ونحو ذلك. وحيث قُيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة. ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن بلفظ الربوبية غالباً، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة"[(٣)].

هذا من جهة ربوبية الله لمخلوقاته، أما من جهة عبودية المخلوقات لله ﷻ فهي أيضاً على نوعين: عبودية عامة، وعبودية خاصة.

---

(١) الفاتحة: ٢.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

(٣) القواعد الحسان: ٨٣، وانظر: العبودية لابن تيمية: ٧-٥٢.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان انقسام العبودية إلى عامة وخاصة: " العبودية نوعان: عامة وخاصة، فالعبودية العامة عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[١]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم[٢]...

وأما النوع الثاني فعبودية الطاعة والمحبة وإتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[٤]...

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته"[٥].

فدل ما سبق على أن للعبودية معنى عاما وهو: القهر والتسخير، وهو يشمل جميع الكائنات كلها، ومعنى خاصا وهو: الطاعة والمحبة والإتباع، وهو يشمل أهل طاعة الله وولايته.

وهذا الكون الواسع بما فيه من الكائنات كلها يخضع لخالقه وباريه ويؤدي عبوديته له سبحانه. وقد جاء في النصوص الشرعية ما يدل على دخول الكائنات – غير الإنسان– في المعنى الخاص للعبودية، كالطاعة والسجود والتسبيح والاستغفار والإسلام والإشفاق والخشوع وسماع

---

(١) مريم: ٨٨-٩٣.

(٢) انظر: العبودية: ١٠٤.

(٣) الزخرف: ٦٨.

(٤) الزمر: ١٧-١٨.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم: ١/١٠٥.

الأذان وشهادتها للمؤذن يوم القيامة وغيرها[١]، وذلك بما أودعه الله فيها من الإدراك والتمييز.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقت فيكما، أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشقَّقِي عن الأنهار ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك"[٣].

وقال تعالى مخبراً عن سجود الكائنات: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[٤].

فأثبت الله السجود لهذه الكائنات، ولكن لا نعلم كيفيته، ولا يلزم أن سجودها على سبعة أعضاء كسجود المسلمين، إذ سجود كل شيء بحسبه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود كل شيء مما يختص به"[٥].

وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

---

(١) انظر: رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ضمن جامع الرسائل لابن تيمية، المجموعة الأولى: ٣ وما بعدها، وعبودية الكائنات لرب العالمين لفريد التوني: ٢٤٤ وما بعدها.

(٢) فصلت: ١١.

(٣) تفسير الطبري: ١١٤/٢٤، وانظر: تفسير ابن كثير: ١٠١/٤.

(٤) الحج: ١٨.

(٥) تفسير ابن كثير: ٢٢٠/٣.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى: تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجّله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

...وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد[٢]،... كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[٣]"[٤].

وأما الإسلام، فقد قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٥].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فذكر إسلام الكائنات طوعا وكرها لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مدبرون، فهم مسلمون له طوعا وكرها ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم يصرّفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم، وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور فقير محتاج معبّد مقهور، وهو سبحانه الواحد القهار الخالق البارئ المصور"[٦].

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) انظر: رسالة في قنوت الأشياء كلها لله: ١/٤، وعبودية الكائنات لرب العالمين: ٢٣٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة: ٦٨٥ برقم (٣٥٧٩).

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/٤٥ باختصار.

(٥) آل عمران: ٨٣.

(٦) العبودية: ١٠٤.

وأما القنوت، فقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾[١].

والمقصود أن هذه الآيات تؤكد أن جميع المخلوقات، الحيوانات منها والنباتات، ناطقها وجامدها، تسبح الله وتمجده وتقدسه وتصلي له وتوحده[٢].

وهذه العبادة من هذه المخلوقات آية من آيات الله العظيمة حين يتصور القلب أن كل حصاة وكل حجر، وكل حبة وكل ورقة، وكل زهرة وكل ثمرة، وكل نبتة وكل شجرة، وكل حيوان وكل إنسان، وكل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء، وكل سكان الأرض والسماء، كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه.

ولقد أنكر هذه العبودية طائفة من الناس بحجة أن هذه الكائنات لا تعقل ولا تدرك وليس لها أي عبودية لله ﷻ ، وما ورد في النصوص من سجود هذه الكائنات أو تسبيحها أو نحو ذلك اضطر إلى القول فيها بالتأويل[٣] أو المجاز[٤]. فقالوا عن سجود الشمس في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[٥]: أن الذي يسجد هو الملك الموكل بها، وتأويل السجود بدلالة تلك الموجودات على أنها مسخرة بخلق الله، فأستعير السجود لحالة التسخير والانقياد.

وعن تسبيح الجبال في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ

---

(١) الروم: ٢٦.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٠٢، ٣٣٠، ٣٤٤، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٧٤، ورسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى لابن تيمية: ٣.

(٣) المراد به هنا: صرف اللفظ من الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح. انظر: التعريفات: ١١٢، ومجموع الفتاوى: ٣٥/٥، ٢٨٨/١٣، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم اختصره محمد بن الموصلي: ٢٢/١.

(٤) المجاز: اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما. انظر: التعريفات: ٢٨٣، أسرار البلاغة في علم البيان للجرجاني: ٤٣٧-٤٣٨، ومختصر الصواعق المرسلة: ٦٩٠/٢.

(٥) الحج: ١٨.

وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾[١]، أن الجبال لم تسبح ولم تردد مع داود عليه السلام، إنما الأمر أن الجبال كانت تمشي مع داود عليه السلام فكان كل من رآها كذلك سبح، إلى غير ذلك من التأويلات الباطلة[٢].

والقول بالمجاز وتأويل النصوص الشرعية على غير مرادها مخالف لهدي السلف الصالح بل فيه محادة لله تعالى ورسوله في نفي آيات الله تعالى المنزلة وتعطيل معناها. ومخالف لما يجب أن يكون عليه المؤمنون تجاه النصوص الشرعية، حيث إنهم مأمورون بالتسليم لها والإيمان بها وعدم الخوض في الكيفية ما دام قد ثبت صحة النص، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[٤]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال البغوي رحمه الله: " ومذهب أهل السنة أن لله علما في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ

(١) سبأ: ١٠.

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي: ٤/ ٣١٩، ٤٥٣-٤٥٤، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي: ٤/٦٩، ٢٤٣، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: ٣٩٣، ٣٩٦.

(٣) النور: ٥١.

(٤) الأحزاب: ٣٦.

(٥) الإسراء: ٤٤.

(٦) النور: ٤١.

لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[(١)]، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى"[(٢)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على من فسر السجود والتسبيح بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيها ودلالتها على الصانع فقط: " وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيهما ودلالتها على الصانع فقط فالاقتصار على هذا باطل؛ فإن هذا وصف لازم دائم لها لا يكون في وقت دون وقت، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى وعلى هذا فالمخلوقات كلها لا تزال ساجدة مسبحة، وليس المراد هذا فإنه قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾[(٣)]. وقال: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾[(٤)]، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنه يعلم ذلك، ودلالتها على الرب يعلمه عموم الناس"[(٥)].

فبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ: "أن دلالتها على الصانع فقط والاقتصار عليه باطل، وذلك لأن الدلالة لا تكون في وقت دون وقت، فإن الله أخبر عن الجبال أنها تسبح مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعشي والإشراق، ولو كان المراد الدلالة على الصانع لكان ذلك في كل وقت"...

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الله ذكر أن سجودها يكون طوعاً وكرهاً، ولو كان متعلقاً بانفعالها لمشيئة الرب وقدرته فإن ذلك لا ينقسم إلى طوع وكره، فقال: "وأيضا فإنه قسم السجود إلى طوع وكره، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكره، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره؛ فإن دليل فعل الرب فيها ليس هو فعل منها ألبتة.

---

(١) الحج: ١٨.

(٢) تفسير البغوي: ٦٦/١.

(٣) ص: ١٨-١٩.

(٤) النور: ٤١.

(٥) رسالة في قنوت الأشياء كلها لرب العالمين: ٤٣/١.

والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات، وكون الرب خالقا لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمر إليها، يبين ذلك أنه خص الظل بالسجود بالغدو والآصال، والظل متى كان وحيث كان مخلوق مربوب"(١).

ثم بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كونها ساجدة مسبحة " آية دالة وشاهدة للخالق تعالى بصفاته لكونها مفعولة له، وهذا معنى ثابت في المخلوقات كلها لازم لها، وهي آيات للرب بهذا الاعتبار، وهي شواهد ودلائل وآيات بهذا الاعتبار؛ لكن ذاك معنى آخر، كما يفرق بين كون الإنسان مخلوقا وبين كونه عابدا لله، فهذا غير هذا، هذا يتعلق بربوبية الرب له، وهذا يتعلق بتألهه وعبادته للرب"(٢).

وقال أيضاً في الرد على من قال يلزم لسجودها أن يكون لها سبعة أعضاء، ووضع الجبهة على الأرض: " ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدور على التراب؛ فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ومن الأمم من يركع ولا يسجد، وذلك سجودها كما قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ (٣)، وإنما قيل ادخلوه ركعا. ومنهم من يسجد على جنب كاليهود، فالسجود اسم جنس ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد"(٤).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد على من قال أن تسبيح الشجر وورقه هو دلالته على صانعه فقط، بعد أن بين الحكمة في خلقها وأنها ساجدة لله مسبحة بحمده: " وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾(٥)، ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب

(١) المصدر السابق: ١/٤٤.

(٢) المصدر السابق: ١/٤٤.

(٣) البقرة: ٥٨.

(٤) المصدر السابق: ١/٢٧-٢٨.

(٥) الإسراء: ٤٤.

إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجها قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر، وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحا وسجودا وصلاة وتأويبا وهبوطا من خشيته، كما ذكر تعالى في كتابه فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾[١]، افترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالته عليه، وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحا، وفرق بينهما وعطف أحدهما على الأخر، وتارة يخبر عنها بالتأويب، كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[٢]، وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشى والإشراق، أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين، وبالجملة فبطلان هذا القول اظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه والحمد لله"[٣].

(١) النور: ٤١.

(٢) سبأ: ١٠.

(٣) مفتاح دار السعادة: ١/٣٤٧-٣٤٨.

المبحث الثاني

الهدي القرآني والنبوي تجاه الآيات الكونية

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الهدي القرآني تجاه الآيات الكونية.

المطلب الثاني: الهدي النبوي تجاه الآيات الكونية.

المطلب الثالث: تأييد الله لأنبيائه بالآيات الكونية.

المطلب الرابع: الآيات الكونية وأركان الإسلام.

المطلب الأول: الهدي القرآني تجاه الآيات الكونية

إن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده، ودعوته إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض والأنفس، لا يُراد منه إلا مخاطبة العقول والفطر البشرية، وتوجيه عامة الناس وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة، ولفتهم إلى آيات قدرة الله وحكمته ودلائل وحدانيته، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة في النفس وجلال في القلب، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين [١].

فالآيات الكونية التي يتحدث عنها القرآن الكريم تتميز بأنها حقائق ضخمة، وخلق عظيم، لا يقدر قدرها إلا الذي أبدعها وخلقها سبحانه وبحمده، وقد أراد الله تعالى أن تكون تلك الآيات الكونية شواهد حق على صدق القرآن الكريم، وبراهين صدق على المبلغ له.

ولهذا نجد أن للقرآن الكريم الهدي الواضح تجاه هذه الآيات الكونية، ويمكن تقسيم ذلك إلى ثلاثة أقسام رئيسة[٢]:

(١) انظر: الموافقات للشاطبي: ١٠١/٢ وما بعدها، والتفسير والمفسرون: ٤٩٣/٢.

(٢) انظر: سمات الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم: ١.

القسم الأول: الهدي المتعلق بذات الآيات الكونية

أولاً: بيان عجزها عن التصرف.

إن من الهدي القرآني تجاه الآيات الكونية أن يبين عجزها، وأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئاً[(١)]، للاستدلال بذلك على إثبات وجود الله، وتقرير وحدانيته وعظمته وقدرته واستحقاقه وحده للعبادة، قال تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾[(٢)].

قال إبراهيم عليه السلام في مناظرته لقومه مبيناً عجز هذه الآلهة التي تدعى من دون الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[(٣)].

قال ابن كثير رحمه الله: " وبين – يعني إبراهيم عليه السلام – في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة... فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا، بل

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ٢/٢٧٦.

(٢) فاطر: ١٣.

(٣) الأنعام: ٧٥-٧٩.

هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾"[١].

فالمعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبرا له في جميع شؤونه، فأما الذي لا يستطيع أن يفعل ذلك، فمن أين يستحق العبادة؟[٢].

ثانياً: الاستدلال بانتظامها وحركتها على وجوب إفراده بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[٣]، فالله الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة، بأكمل تدبير، وأحسن نظام، وهذا دليل ظاهر على عظمة الخالق، وعظمة أوصافه، وأنه ليس معه آلهة أخرى؛ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون[٤].

ثالثاً: بيان خلق الله وتقديره وهدايته لها، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/١٥٦-١٥٧.

(٢) انظر: تفسير ابن سعدي: ١/٤٨٦.

(٣) يس: ٣٧-٤٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٣/ ٩-١٠، تفسير البغوي: ٣/٦٤٠، تفسير ابن سعدي: ٣/١٤٥٣.

(٥) الأعلى: ١-٣.

(٦) طه: ٥٠.

فالله هو الذي خلق كل شيء فسواه، فأكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه. وقدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله.

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: " يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي أتقنها وأحسن خلقها، ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَىٰ﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات. وهذه الهداية العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته"(١).

رابعاً: بيان خضوعها لله عَزَّوَجَلَّ .

أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في آيات كثيرة عن خضوع هذه الآيات الكونية له، طوعاً وكرهاً، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(٣).

فجميع ما خلقه في السماوات وما دب على الأرض ومشى على ظهرها من مخلوقات كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(٤).

خامساً: بيان موافقتها للفطرة.

---

(١) تفسير ابن سعدي: ١٩٥٩/٤، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٧/ ٢٤٢٤-٢٤٢٥، وتفسير القرطبي: ١٥/٢٠.

(٢) النحل: ٤٨-٤٩.

(٣) فصلت: ١١.

(٤) انظر: العبودية: ١٠٤، وتفسير ابن كثير: ٤٥/٣، وتفسير ابن سعدي: ٨٢٦/٢.

إذا تدبر الإنسان كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ وجد أن الله ﷻ قد أنزل الوحي موافقا للفطرة، والواقع المحسوس، لا يستطيع أن ينكر ذلك إلا مكابر قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(١).

قال ابن القيم رحمه الله: "وتأمل حال العالم كله علوية وسفلية بجميع أجزائه تجده شاهدا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه، فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق والفعال على الفعل والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية والفطر الصحيحة أظهر من العكس.

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما"(٢).

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بهذا المخلوق أن وضع الدلائل المساندة للفطرة والموضحة له الطريق الصحيح في السلوك لما يريده خالقه منه، وأعقب ذلك بإرسال الرسل عليهم السلام بالوحي لزيادة التوضيح والبيان لكيفية سلوك هذا الطريق فجاءت معاني النصوص ودلالاتها موافقة لما في الكون من الآيات والحقائق.

قال تعالى: ﴿۞ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣).

قال ابن كثير رحمه الله: "يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؛ فإن الفطر تشهد بوجوده والاعتراف به؛ ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده. ومن ذلك النظر في هذا الكون، ومن خلقه وأوجده على غير مثال سابق، ولهذا قالت الرسل لأقوامهم ترشدهم إلى طريق معرفته

---

(١) الأنعام: ٣٣.

(٢) مدارج السالكين: ١/٥٩-٦٠.

(٣) إبراهيم: ١٠.

بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سابق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجلى منها، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه، ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها، ولا يطيق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به... ومفصلين لما في الفطرة والعقل العلم به جملة.

فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته مودعا في الفطرة مركوزا فيها، فلو خُلّيت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه، لأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته، وبصفاته وحكمته في أفعاله، وبالثواب والعقاب، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ما جحدت"(٢).

فالقرآن يخاطب الفطرة بجملتها، يخاطبها من أقصر طريق، ومن أوسع طريق وأعمق طريق.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥٤٤/٢، وانظر: مدارج السالكين: ٦١/١.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٤٢١/١-٤٢٢.

القسم الثاني: الهدي المتعلق بطريقة القرآن الكريم في عرضها وأسلوب ذكرها وإيرادها.

أولاً: التنوع في صيغ الحث على التفكر في آيات الله الكونية، فتارة بالأمر، وتارة بالاستنكار، وتارة بختم الآيات بالتعقل والتفكر، ووصف أصحابها بالعقل، وأولي الألباب، لقوم يعقلون، لقوم يتفكرون.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾[٢].

فأكثر الآيات القرآنية التي سيقت فيها الآيات الكونية، تختم غالباً بالدعوة والحث على النظر والتفكر والتأمل[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[٤]، وفي موضع ﴿يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٥]، و ﴿يَعۡلَمُونَ ﴾[٦]، و ﴿يَعۡقِلُونَ ﴾[٧]، و ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٨].

---

(١) يونس: ١٠١.
(٢) ق: ٦- ٨.
(٣) سمات الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم: ٧.
(٤) النمل: ٨٦.
(٥) الرعد: ٣.
(٦) يونس: ٥.
(٧) البقرة: ١٦٤.
(٨) النحل: ١٣.

ثانياً: عرضها بأبسط السبل ولعامة الناس دون الحاجة إلى التعمق والتكلف.

فالآيات الكونية تعرض في القرآن لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعقولهم، ولذلك جاءت هذه الآيات بأبسط وأوضح صورة ليعقلها جميع الناس.

فلا يشق على آحاد الناس وعامتهم إدراكها. وبذلك فهي سهلة الإدراك، لا تحتاج إلى أدوات علمية ولا إلى تقنية عصرية. ولا يعني هذا أن العالم والأمي يستويان في درجة الإدراك، بل المقصود أنهما يستويان في حصول أصل الإدراك، وإن تفاوتا في درجته ومبلغه(١).

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(٢).

فالمشاهد التي تعرض في هذه الآيات في حاجة إلى العلم لإدراك التدبير والتفكر، وهي معروضة للإنسان حيثما كان، السماء والأرض والجبال والحيوان، وأياً كان حظ الإنسان من العلم فهي داخلة في عالمه وإدراكه، داعية له حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها بإفراد الله ﷻ بالربوبية والألوهية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٣).

فاختلاف الليل والنهار تعاقبهما، ويشمل كذلك اختلافهما طولاً وقصراً، وكلتاهما ظاهرتان مشهودتان يعقلهما كل أحد.

وما خلق الله في السماوات والأرض على اختلاف إشكاله وأنواعه يعقله كل أحد إن في ذلك كله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) المصدر السابق: ٣.

(٢) الغاشية: ١٧-٢٠.

(٣) يونس: ٦.

ولذلك لم يكن من الهدي القرآني استخدام الأسلوب الجدلي الذي جد فيما بعد عند المتكلمين والفلاسفة؛ لأن بعض هذا الأسلوب لا يصل إلى القلوب ولا يوافق العقل والفطرة، ولكن الهدي القرآني في عرضه للآيات الكونية بهذا الأسلوب الواضح البسيط هو أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل جميعاً.

ثالثا: التدرج في عرضها والبدء بالأهم، فنجد من الهدي القرآني عند عرضه للآيات الكونية البدء بالأهم، ويمهد لذلك بالقضايا المسلمة ثم ينتقل إلى الأصعب حتى يصل إلى المراد، قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾[1].

فنلاحظ من خلال الآيات التدرج معهم بالقضايا المسلمة مما أقروا به، ثم الترقي من الأمر السهل إلى الأمر الصعب.

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " أي قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجا عليهم بما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ ﴾،... ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾،... ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله، فقال: ﴿ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾"[2].

---

(١) المؤمنون: ٨٤-٩٠.

(٢) تفسير ابن سعدي: ٣/١١٤٢-١١٤٣.

رابعاً: ذكرها على سبيل العموم والإجمال في الغالب، فالألفاظ القرآنية التي في سياق ذكر آيات الكون تتسم بعموم وإجمال، دون الخوض في تفاصيل وأجزاء الآيات الكونية؛ لأن الغرض والغاية من تلك الحقائق الكونية المذكورة في القرآن الكريم الاستدلال بها على المسائل الكبرى في هذا الدين، وتفاصيل وأجزاء تلك الحقائق الكونية غير مرادة(١)؛ لأنها لا تحقق الهدف، فإن أكثر الناس لا يدرك تفاصيل الحقائق الكونية، مما يجعله لا يستوعب الحديث عنها بهذا القدر التفصيلي.

ولا يعنى هذا أن القرآن الكريم لم يرد فيه مواضع جاءت مفصلة، إذ وردت ألفاظ في غاية الدقة والانتقاء لتعبر عن أوصاف دقيقة، كقوله تعالى في وصف مراحل تخلّق الجنين في رحم أمه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(٢).

قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير سورة البقرة في فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾(٣): "ومنها: أنه ينبغي النظر إلى الآيات على وجه الإجمال والتفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾: مطلق؛ ثم قال تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾... الخ؛ فيقتضي أن نتأمل أولاً في الكون من حيث العموم، ثم من حيث التفصيل؛ فإن ذلك أيضاً يزيدنا في الإيمان"(٤).

خامساً: الاستفهام: وقد تعددت طرقه، فتارة يكون بالاستفهام التقريري عن الخلق والخالق،

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/٢٧٧، وسمات الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم: ٦.

(٢) المؤمنون: ١٢-١٤.

(٣) البقرة: ٢٥٩.

(٤) تفسير القران الكريم، سورة البقرة لابن عثيمين: ٣/٢٩٦.

وتارة يكون بالاستفهام عن انتظام الكون واتزانه، إلى غير ذلك[١].

فالاستفهام التقريري هو: " الذي يرد في صورة عرض مقدمات أو قضايا مسلمة عند الخصم على صيغة الاستفهام ثم التدرج معه حتى يصل به للإقرار بالقضية المنكرة وينقاد للحق ويسلم له"[٢].

ويتوصل به إلى إثبات مقاصد القرآن العظمى كالتوحيد والبعث والوحي، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: " ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره... فهم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي أإله مع الله يعبد؟ وقد تبين لكم، ولكل ذي لب مما يعرفون به أيضًا أنه الخالق الرازق"[٤].

"وهذه الآيات مألوفة ولكن طبيعة قوة الاستفهام أضفت على هذه الآيات الجدة والحداثة بحيث بدت كما لو أنها أول مرة يرى فيها البصر هذا الكون ويرى فيه القدرة الإلهية المتفردة تدبره وتحكمه، ووجه الاستدلال ما يتبدى من هذا الاستفهام من تقدم قضية الخلق على بقية القضايا

---

(١) منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية: ١١٢-١١٤.

(٢) المصدر السابق: ١١٣.

(٣) النمل: ٦٠-٦١.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/٣٨١-٣٨٢، وانظر: تفسير البغوي: ٣/٤١٠.

المعروضة، لشرفها وعظمتها ولأنها كالأم لبقية القضايا"[١].

ومن منهجه في الاستفهام أن يتخذ أسلوب السبر والتقسيم وذلك بأن يحصر جميع الافتراضات الواردة في القضية ثم يبدأ في تفنيد كل افتراض على حده ويبين أنه غير صالح ولا وجه لقبوله حتى يصل للافتراض الصحيح في المسألة، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[٢].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضا محال، فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه.

فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث وهو: أن الله هو الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى"[٣].

سادساً: الاستدلال بالآيات الكونية في الحوار والمجادلة، وذلك من أجل إظهار الحق وتفنيد الباطل.

ومن ذلك ما جاء في حوار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

(١) منهج القرآن في عرض الظواهر الكونية: ١١٨.

(٢) الطور: ٣٥-٣٦.

(٣) تفسير ابن سعدي: ١٧٢٦/٤، وانظر: الرسالة التدمرية لابن تيمية: ٢٠.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[١].

والملاحظ عند الاستدلال بهذه الآيات مناسبة هذه الآية الكونية لموضوع الحوار وطبيعته وتوقيته[٢]، قال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[٣].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قد اشتملت الآية الأولى على معجزة، وتسلية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض وصفة المسلّم لحكم الله دينه"...

ثم قال جوابا عن الشبهة: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾: " ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قُل﴾ لهم مجيبا: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله؟ لم تستقبلوا جهة ليست ملكا له، فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله حسدا لكم وبغيا"[٤].

وكذلك وقوعها موقع الدليل القوى لرد ودحض حجة المجادلين المعاندين بأقوى البراهين الرادعة الزاجرة، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي

---

(١) لقمان: ٢٥.

(٢) منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية: ٦٩.

(٣) البقرة: ١٤٢.

(٤) تفسير ابن سعدي: ١٠٢/١.

﴿بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد الآية: "ثم إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ انتقل إلى أمر لا يمكن الجدال فيه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾". ثم قال: "ومنها-أي الفوائد-: حكمة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وجودته في المناظرة"(٢)، حيث آتى بالأدلة الواضحة التي لا تحتمل المعارضة فعجز المعارض عن الرد.

سابعاً: التنويع البديع في عرض الآيات الكونية لإقامة الحجة بها على الجاحدين، والإيضاح والتبيين؛ لأن تعدد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحاً(٣)، ويكون سبباً لهداية من أراد الله له الهداية(٤).

فالتنوع والتعدد في عرض الآيات الكونية ينتج عنه انتفاء الملل والسأم لتعدد وتنوع ما يذكر من الآيات الكونية، فمرة تتحدث الآيات عن الأفلاك والعوالم العلوية، ثم ما تلبث تتحدث عن الجبال والأرض والعوالم السفلية.

وتستحوذ على اهتمام الناس بمختلف مستوياتهم ومشاربهم، إذ الناس مختلفون فيما يستوقفهم ويسترعي انتباههم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾(٦).

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) تفسير القرآن الكريم، سورة البقرة لابن عثيمين: ٣/٢٨٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢٦/٥٤.

(٤) انظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي: ١٣/٢٠.

(٥) الأنعام: ١٠٥.

(٦) الأحقاف: ٢٧.

ويستخدم في عرض الآيات الكونية أساليب مختلفة: فتارة تعرض مجملة، وتارة مفصلة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾[١]. فقد جاء القرآن بالتوحيد، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقاً شتى، وأساليب متنوعة، ووسائل متعددة ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها[٢]، وإلى الآيات الكونية ودلالتها؛ ولكن الكفار يزيدون نفوراً كلما سمعوا هذا القرآن.

ويستخدم كذلك مفهوم المقابلة بين هذه الآيات الكونية"بذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها وتكون بالأضداد وغيرها"[٣].

فوصف السماء يقابله الأرض، ووصف الليل يقابله النهار وهكذا.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾[٤]، فوصْف الأرض فراشاً يقابل وصف السماء بناءً، وقد جاء هذا الوصف عن السماء مع الأرض قراراً، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾[٥].

ومنه قوله تعالى في المقابلة بين الليل والنهار: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٧].

---

(١) الإسراء: ٤١.

(٢) انظر: رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى: ١/١١-١٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣/٤٥٨.

(٤) البقرة: ٢٢.

(٥) غافر: ٦٤.

(٦) يونس: ٦٧.

(٧) النمل: ٨٦.

ثامناً: الإقسام من الله بها لبيان أهمية هذا المقسم به والمقسم عليه، ولبيان آيات العبرة والقدرة التي تظهر في هذا الكون الذي خلقه الله ونظمه(١).

والقسم في الخطاب من أساليب تأكيد القضية وتقريرها، ودفع الخصم إلى الاعتراف بما يجحد وينكر، أو يتردد ويتخوف منه.

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا غاية القسم: "القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون بما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها"(٣).

ويتنوع القسم بالآيات الكونية حسب تنوعها من آيات فلكية وآيات زمنية وآيات جوية(٤).

قال تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(٥).

وهذا القسم بهذه الآيات من باب التعظيم والتكريم لهذه المخلوقات وأنها شواهد ودلائل على عظمة الخالق وقدرته وتوحيده.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾(٦): "والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله عَزَّوَجَلَّ ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على

---

(١) انظر: التعليق العلمي على المنتخب في تفسير القرآن الكريم للجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة: ٨٠١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٤/٤٦.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ١٣/٣١٤، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم: ١/٤٦.

(٤) انظر: منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية: ١٦٤.

(٥) الواقعة: ٧٥-٧٦.

(٦) الواقعة: ٧٥.

عظمته"[١].

ولذلك يقسم الله بهذه الآيات الكونية على أمور عظيمة[٢]، ومن ذلك القسم بالزاجرات – وهي الملائكة– تزجر السحاب، وعلى القول الأخر في تفسير الصافات فإنه قسم بالصافات – وهي الطير تصف أجنحتها في الهواء –[٣]، والسحاب والطير من آيات الله الكونية أقسم بها على التوحيد ، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾[٤].

وعلى أن القرآن الكريم حق وصدق ومنزل من عند الله قال تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٥].

وعلى أن محمداً ﷺ صادق القول وأن كلامه وحي من الله، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[٦].

والقسم بهذه الآيات الكونية على نمط جلي واضح، وهو القسم بالظاهرة وأحوالها المنتظمة الدالة على عظمة خالقها، ومشيئته وحكمته ليفرد بالتأله والعبادة كما أفرد بالربوبية، ومن ذلك قسمه سبحانه بالليل في جميع أحواله قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣١٩/٤، وانظر: الإتقان في علوم القرآن: ٤٦/٤.

(٢) انظر: منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية: ١٥٧-١٥٨.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٦١/١٤، وتفسير ابن كثير: ٥/٧.

(٤) الصافات: ١-٤.

(٥) الواقعة: ٧٥-٨٠.

(٦) النجم: ١-٤.

(٧) المدثر: ٣٣.

﴿ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[٥].

تاسعاً: ضرب الأمثال بها للتوضيح والتقريب "بتنزيل المعقول منزلة المشهود فيكون التصديق أتم، ومعرفته أكمل، وضبطه أسهل"[٦].

فإن في ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وهذا من رحمة الله وحسن تعليمه، فله أتم الحمد وأكمله وأعمه.

ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه من ضرب الأمثلة بالآيات الكونية وتنوعها، ففيه التمثيل بالظلمات والنور، والتمثيل بالنبات، والتمثيل بالريح وهكذا[٧].

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) التكوير: ١٧.

(٢) الانشقاق: ١٧.

(٣) الفجر: ٤.

(٤) الليل: ١.

(٥) الضحى: ٢.

(٦) مدارج السالكين: ١/٢٧١.

(٧) انظر: منهج القرآن في عرض الظواهر الكونية: ٩١ وما بعدها، للتعرف على طريقة القرآن في التمثيل بالآيات الكونية.

وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[١].

ويلاحظ من خلال ضرب الأمثال البعد عن الغرابة الموهمة أو الغموض، فالغرابة غير مقصودة في أمثال القرآن وغير مرادة؛ فإن ضرب الأمثال إنما يكون" لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت له الأمثال ازداد المعنى ظهورا، ووضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له فهي ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾[٢]... وهي خاصة العقل ولبه وثمرته"[٣].

(١) إبراهيم: ٢٤-٢٧.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم: ١/٤٢٥.

القسم الثالث: الهدي المتعلق بالغرض والغاية الذي سيقت لأجله تلك الآيات الكونية.

أولاً: الاستدلال بها على أصول العقائد.

فهذه الآيات الكونية وما تدل عليه من حقائق علمية، لم تذكر في القرآن الكريم لمجرد الذكر، أو من أجل بيانها للناس ودلالتهم عليها ابتداءً، وإنما هي سيقت تابعا للغرض والهدف الذي ذكرت في ثناياه، فهي سيقت في سبيل الاستدلال بها على قضايا كبرى كالألوهية والنبوات والبعث والإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر، وهذا النوع كثير في القرآن(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: " وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلا ولا عبثا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق، ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاؤوهم بما يشاهدون أدلة صدقه، وبما لو تأملوه لرأوه مركوزا في فطرهم مستقرا في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار"(٢).

ومن ذلك الاستدلال بخلقها وملكها على وجوب إفراد الله بالعبادة كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان: ١.

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم: ٤/١٦٢-١٦٣.

﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مضمون هذه الآية – بعد أن ذكر ما في هذه الآية من أن الله هو المنعم على عبيده بخلقهم وإسباغه عليهم النعم–: " ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غَيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾"[٢].

وقد وصف الله سبحانه القرآن بأنه هدى ورحمة وبيان ورشاد للخلق جميعاً وفي الحق؛ ولذا يجب أن يُقتصر بتلك الآيات فهماً واستنباطاً على ما يحقق الغاية التي سيقت لها، فهذا الغرض والمقصد هو الهدف الأصيل لسياقها، وكل ما تحقق مع هذا الهدف فهو تبع له دائر في فلكه، لا يجوز أن يجنح بنا النظر والاستنباط عن هذه الدائرة[٣].

ثانياً: الاعتبار والانتفاع بها.

يبين الله تعالى أن سياق هذه الآيات الكونية وذكرها إنما هو للعظة والاعتبار، قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[٤]، أي يفهموا ما خلقوا من أجله، ويفقهوا الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية، ويتدبروا عن الله آياته وحججه وبراهينه[٥].

"وظاهر الآية يدل على أنه تعالى ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم، فأما من أعرض وتمرد فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم والله أعلم"[٦].

فالنظر إلى الآيات الكونية والاعتبار بحكمة الله في خلقها، دليل عظيم ينتفع به أهل

---

(١) البقرة: ٢١-٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/٦٠، وانظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القران: ٢٨.

(٣) سمات الآيات الكونية في القرآن الكريم: ٦.

(٤) الأنعام: ٦٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٢٢٩،٢٥٥، وتفسير ابن كثير: ٢/١٤٨، وتفسير ابن سعدي: ٢/٤٨١.

(٦) تفسير الرازي: ١٣/٢٠.

العقول، ولذلك لما عقل أهل الإيمان هذه الآيات حصل لهم الاعتبار والانتفاع فزاد إيمانهم وتعلقهم بربهم فحصلت لهم الهداية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[1].

أما من أعرض عن آيات الله ولم يتفكر فيها ويأخذ العبرة منها، فإن الآيات على كثرتها والنذر على قوتها لا تغني عن القوم الظالمين، قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

ثالثاً: بيان امتنان الله ﷻ بها على عباده والذي يستلزم إفراده بالعباده.

فالله ﷻ يمن على عباده بخلقه لهذه الآيات العظيمة، وتسخيرها للناس وتيسيرها لهم، وهو بذلك يدعوهم إلى عبادته وحده.

قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾[3].

قال ابن سعدي رحمه الله: " وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلا عن شكرها، وأداء حقها"[4].

---

(١) آل عمران: ١٩٠-١٩١.

(٢) يونس: ١٠١.

(٣) الواقعة: ٦٣-٦٧.

(٤) تفسير ابن سعدي: ١٧٦٨/٤، وانظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان: ٣٣٠/٢، ٤١١/٣.

فتعرض هذه الآيات كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس، وفي معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله، وهي وإن كانت مناً يحق أن يشكرها الناس فإنها أيضاً دلائل إذا تفكر فيها المنعَمُ عليهم اهتدوا بها إلى أن الذي يخلق هذا ويبدعه بهذا التناسق هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده ويخلص له الدين وحده"(١).

رابعاً: بيان آثار صفات الله وأفعاله من خلالها.

فإن من هدي القرآن تجاه الآيات الكونية لفت الأنظار والتفتيش والاعتبار بآثار ربوبية الله وصفاته من الإحياء والإماتة، والرزق وخلق السماوات والأرض والنبات، وإنزال المطر من السحب، وتعاقب الليل والنهار وغيرها كثير(٢)، للقيام بحق ربوبية الله وألوهيته، فلا يقصد في الحوائج غيره، ولا يتوكل على سواه، ولا يستعن إلا به، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع إليه ويتوكل عليه"(٣).

وقال تعالى مبيناً أثراً من آثار صفاته – وهي صفة الرحمة –: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فانظر يا محمد ﷺ، إلى آثار الغيث الذي ينزل الله من السحاب، كيف يحيي بها الأرض الميتة، فينبتها ويعشبها، من بعد موتها ودثورها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٥/ ٣٣٧، وانظر: تفسير ابن سعدي: ٨٥١/٢.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية: ١٨٠/١-١٨١.

(٣) العبودية: ٥٢.

(٤) الروم: ٤٨-٥٠.

﴾. يقول جلّ ذكره: إن الذي يحيي هذه الأرض بعد موتها بهذا الغيث، لمحيي الموتى من بعد موتهم، وهو على كل شيء مع قدرته على إحياء الموتى قدير، لا يعزّ عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه فعل شيء شاءه سبحانه"(١)،" وفي هذا الحث على التذكر والتفكر في آلاء الله والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال"(٢).

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: " فأما المفعولات فأنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات؛ فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحدا غير متكرر، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة

(١) تفسير الطبري: ٦٤/٢١.

(٢) تفسير ابن سعدي: ٥٥٢/٢-٥٥٣.

(٣) يونس: ٥-٦.

تصدق الآيات المسموعات، منبهه على الاستدلال بالآيات المصنوعات"[١].

خامساً: بيان الحكمة في خلق هذه الآيات الكونية، وأن ذلك بالحق، وأنها لم تخلق عبثاً.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

فأخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق، أي بالعدل والقسط، وأنه لم يخلق ذلك عبثًا ولا لعبًا[٣]، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٤].

فالله ﷻ ما خلق السماوات والأرض عبثا، ولا لعبا من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق الذي لا يصلح التدبير إلا به، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله، فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته[٥].

سادساً: التحدي بها إقامة للتوحيد ورداً للشرك، فهي حجة دامغة وبرهان ساطع كما أخبر الله تعالى في قصة مناظرة إبراهيم عليه السلام مع المشرك الجاحد ألوهية الله وربوبيته، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

---

(١) الفوائد: ٣٢، وانظر: تفسير ابن سعدي: ٦٩٩/٢.

(٢) الدخان: ٣٨-٣٩.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ١٥٦/٤.

(٤) ص: ٢٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٧٩/٢٣،، وتفسير البغوي: ٧٠١/٣، ١٥٢/٢٥، وتفسير ابن سعدي: ١٠٥٩/٣.

مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: " فإن من تأمل موقع الحجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة، فإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقا فليتصرف في الشمس تصرفا تصح به دعواه، وليس هذا انتقالا من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة"[٢].

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) الصواعق المرسلة: ٢/٤٩٠-٤٩١، وانظر: تفسير ابن سعدي: ٤/٢٠١٦.

المطلب الثاني: الهدي النبوي تجاه الآيات الكونية

قد بين الله تعالى في كتابه العزيز أن ما فضل به رسول الله ﷺ على غيره من البشر إنما هو بالوحي.

قال جل ذكره: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[١].

فهو ﷺ بشر من بني آدم، ليس له من الأمر شيء، وإنما فضله الله وخصه بالوحي الذي أوحاه إليه، وأمره بإتباعه والدعوة إليه[٢].

والوحي يشمل القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ الذين جاء بهما محمد ﷺ من عند الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٤].

وقد أمر الله ﷻ بطاعة رسوله ﷺ في آيات كثيرة، وبين أن طاعته من طاعة الله تعالى، وليس ذلك إلا لأنه يتكلم بالوحي وينطق به ويأمر بشريعة الله تعالى ويبين سنن الهدى التي أمره الله تعالى أن يبلغها، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾[٦].

---

(١) الكهف: ١١٠، فصلت: ٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠٧/٢٤، وتفسير ابن كثير: ١١٤/٣، وتفسير ابن سعدي: ١٥٦٤/٤.

(٣) النجم: ٣-٤.

(٤) يونس: ١٥.

(٥) النساء: ٨٠.

(٦) المائدة: ٩٢.

وقد ختمت الرسالات برسالة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾(١).

فكان محمد ﷺ رسولاً للعالمين، وليس خاصاً بقومه من العرب كما كان الأنبياء والمرسلون قبله يرسلون إلى أقوامهم؛ وذلك لأن رسالته هي خاتم الرسالات، ودينه هو الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣).

وقال ﷺ: «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون».

وفي رواية: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود»(٤).

وقد بين الله تعالى أنه علم هذا الرسول من العلوم ما لم يكن يعلم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(٥).

وقد أمره الله تعالى أن يدعوه بطلب زيادة العلم، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(٦). فهذا العلم – ومنه العلم بالآيات الكونية – الذي جاء عن رسول الله ﷺ إنما هو من الوحي الذي أوحاه الله تعالى إليه.

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) الفرقان: ١.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة: ١/٣٧٠-٣٧١ برقم (٥٢١، ٥٢٣).

(٥) النساء: ١١٣.

(٦) طه: ١١٤.

وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه عندما سأل رسول الله ﷺ عن كتابة كل ما يسمعه منه فأوما ﷺ بأصبعه إلى فيه، وقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»[(١)].

فهذا يدل على أن كل ما جاء في السنة المطهرة حق لا شك فيه سواء كان إشارة إلى حقيقة علمية، أو قضية تاريخية عن نبي من الأنبياء، أو عن أحد من أهل زمانه أو غير ذلك، وهو موافق لما جاء في القرآن.

ولما كان الأمر كذلك فلا بد أن تكون وجوه الإعجاز فيها هي نفس وجوه الإعجاز في القرآن الكريم اللهم إلا فيما كان راجعاً إلى الصفة الإلهية في القرآن الكريم كإعجازه اللغوي والنحوي والصرفي والأسلوبي[(٢)].

ويمكن تقسيم الهدي النبوي تجاه هذه الآيات الكونية، كالتقسيم السابق للهدي القرآني تجاهها إلى ثلاثة أقسام رئيسة[(٣)]:

---

(١) سنن أبي داود، كتاب العلم، باب في كتابة العلم: ٤٠٣ برقم (٣٦٤٦)، ومسند الإمام أحمد: ٥٨/١١ برقم (٦٥١٠)، وقال المحقق: إسناده صحيح. ورواه الحاكم في مستدركه: ١٠٥/١-١٠٦، وقال: رواة هذا الحديث قد احتج بهم عن آخرهم غير الوليد، وأظنه الوليد بن أبي الوليد الشامي فإنه الوليد بن عبد الله، وقد غلبت على أبيه الكنية، فإن كان كذلك فقد احتج مسلم به. وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: إن كان الوليد هو ابن أبي الوليد الشامي فهو على شرط مسلم. قال الألباني على كلام الحاكم: كذا قال، وإنما هو الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث مولى بني الدار حجازي، وهو ثقة كما قال ابن معين وابن حبان. انظر: السلسلة الصحيحة: ٤٥/٤-٤٦ برقم (١٥٣٢).

(٢) انظر: مقارنة بين أسلوب الحديث النبوي وأسلوب القرآن الكريم لمصطفى أحمد الزرقا، مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد (١)، عام ١٣٩٥: ٩١-٩٥.

(٣) انظر: ص ٣٤ من هذا البحث، وسمات الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم: ١.

القسم الأول: الهدي المتعلق بذات الآيات الكونية

أولاً: بيان عبودية هذه الآيات الكونية لله وأنها تسبح له.

أخبر النبي ﷺ عن عبودية هذه الآيات الكونية لربها، وأنها تسبحه وتلبي مع الملبي، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[١]، وقال ﷺ: «ما من مسلم يلبي إلا لبى ما عن يمينه، أو عن شماله من شجر أو حجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا»[٢]، فهذا إخبار بأن الحجر يلبي تلبية حقيقية.

ثانياً: الإخبار عن بعض صفاتها وأعمالها.

أخبر النبي ﷺ عن بعض صفات وأعمال هذه الآيات الكونية، فقال عن جبل أحد: «أحد جبل يحبنا ونحبه»[٣].

وأخبر عن حجر كان يسلم عليه قبل مبعثه -عليه الصلاة والسلام-، فقال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[٤].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة: ٦٨٥ برقم (٣٥٧٩).

(٢) سنن الترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء في فضل التلبية والنحر: ١٥٤ برقم (٨٢٨)، وسنن ابن ماجه، بلفظ" ما من ملب"، كتاب المناسك، باب التلبية: ٣١٨ برقم (٢٩٢١)، ورواه الحاكم في المستدرك بلفظ"ما من مؤمن": ٤٥١/١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب (٨١): ٨٣٨ برقم (٤٤٢٢).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة: ١٧٨٢/٤ برقم (٢٢٧٧).

القسم الثاني: الهدي المتعلق بطريقة السنة في عرضها للآيات الكونية وأسلوب ذكرها وإيرادها.

أولاً: استعمال الاستفهام لتقرير الأمور الغيبية المتعلقة بالآية الكونية.

كان من هدي النبي ﷺ في التعليم استخدام الاستفهام في بيان المسألة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس فلما غابت الشمس، قال: «يا أبا ذر هل تدرى أين تذهب هذه؟» قال: قلت الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنها تذهب فتستأذن فى السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها»[(١)].

ثانياً: ضرب الأمثال بها.

فمن أساليب تعليم النبي ﷺ ضرب الأمثال في الأمور المهمة بالأمور المحسوسة المعقولة[(٢)]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون[(٣)] في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه حجاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك»...

ثم ذكر حشر الناس يوم القيامة، ومن يجوز الصراط ثم قال: «وبه كلاليب مثل شوك السعدان. أما رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله».

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الزمان الذي لا يقبل فيه الإيمان: ١/١٣٩ برقم (١٥٩).

(٢) انظر: مدارج السالكين: ١/٢٧١.

(٣) بضم أوله وبالضاد المعجمة وتشديد الراء بصيغة المفاعلة من الضرر. أي لا تضرون أحداً ولا يضركم بمنازعة ولا مجادلة ولا مضايقة. وجاء بتخفيف الراء من الضير وهو لغة في الضر أي لا يخالف بعض بعضاً فيكذبه وينازعه فيضيره بذلك. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: ١١/٤٤٦.

ثم ذكر صفة الذين يخرجون من النار من أهل السجود فقال: «فيُخرجونهم قد امتحشوا[١]، فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة فينبتون نبات الحِبة[٢] في حميل السيل[٣]» الحديث[٤].

(١) بفتح المثناة والمهملة وضم المعجمة. أي احترقوا وزنه ومعناه. انظر: فتح الباري: ٤٥٧/١.

(٢) بكسر أوله. قال: الفراء هي بزر البقل البري، وقال أبو عمرو: نبت ينبت في الحشيش، وقيل: ما كان في النبات له اسم فواحده حبة بالفتح، وما لا اسم له حبة بالكسر. انظر: فتح الباري: ١٠١/١.

(٣) هو ما يجيء به السيل من طين وغيره، فعيل بمعنى مفعول، وقيل هو خاص بما لم يصك قطره، ولبعضهم بالهمزة بدل اللام وهو كالحمأة. انظر: فتح الباري: ١٠٨/١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم: ١٢٧٥ برقم (٦٥٧٣).

القسم الثالث: الهدي المتعلق بالغرض

والغاية الذي سيقت لأجله تلك الآيات الكونية.

أولاً: التوسل إلى الله ﷻ بربوبيته لها[١]:

كان من هدي النبي ﷺ حينما كان يتوجه إلى ربه بالدعاء أن يتوسل في دعائه بذكر ربوبيته وأسمائه وصفاته الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة، والتي لها علاقة بدلائل الآيات الكونية؛ لأنها من أعظم الدلائل على وحدانية الله سبحانه، فكان ﷺ يدعو عند الكرب فيقول: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم»[٢]، وكان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»[٣].

ثانياً: بيان المسائل العقدية عند حدوث التغيرات الكونية.

فمن هدي النبي ﷺ أن يبين بعض المسائل العقدية عند حصول تغيرات كونية، ويبين السبب في حدوث ذلك.

فقد أخبر النبي ﷺ عند شدة الحر وشدة البرد أن هذه الشدة من فيح جهنم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم»، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «واشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد

---

(١) انظر في أحكام التوسل كتاب قاعدة جليلية في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية، التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب: ١٢٢٠ برقم (٦٣٤٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه: ٣٤/١ برقم (٧٧٠).

ما تجدون من الزمهرير»[١]، إلى غير ذلك.

ثالثاً: التنبيه على المخالفات العقدية عند حدوث التغيرات الكونية:

كان من هدي النبي ﷺ الواضح التنبيه على المخالفات العقدية خصوصاً عند وجود مناسبة لذلك، فلما كسفت الشمس في اليوم الذي توفي فيه ابنه إبراهيم، وكان من الاعتقادات في الجاهلية أن كسوف الشمس أو القمر يحصل عند موت عظيم أو حياته وربط بعض الصحابة هذه الآية بحالة الوفاة، قطع النبي ﷺ هذا الاعتقاد من أصله، فقال: «الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته؛ ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فصلوا»[٢].

رابعاً: الأمر بالتوجه والتعلق بالله ﷻ عند حدوث تغيرات كونية.

فعند حصول أي تغير في هذه الآيات الكونية نجد أن الرسول ﷺ يحث أمته على التوجه إلى الخالق والتعلق به، مع بيانه أن هذه الآيات مربوبة مخلوقة يتصرف الله فيها كيف يشاء.

ففي أحاديث الكسوف يأمر ﷺ بالإسراع إلى الصلاة والتوجه إلى الله سبحانه، وأن الجرمين السماويين الذي ينتج عنهم أثر الخسوف والكسوف ما هي إلا مأمورة بأمر خالقها، تؤدي ما وجب عليها من فعل وليس لها تأثير في حياة أو موت، وإنما المحي والمميت هو خالقها سبحانه، ولذلك جاء في الحديث السابق: «فإذا رأيتم – يعني الكسوف- فصلوا وادعوا الله».

خامساً: الخوف والوجل من الله ﷻ عند حدوث التغييرات الكونية.

فقد كانت حاله ﷺ بخلاف حال الناس، من الخوف من الله حتى يعرف ذلك من فعله وحاله، فلما كسفت الشمس قام فزعاً يخشى أن تكون الساعة[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر: ١٢٢ برقم (٥٣٤، ٥٣٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا حياته: ٢١١ برقم (١٠٥٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف: ٢١١ برقم (١٠٥٩).

إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [١]» [٢].

(١) الأحقاف: ٢٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾: ٩٤٨ برقم (٤٨٢٨).

المطلب الثالث: تأييد الله لأنبيائه بالآيات الكونية

أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، وحجة على العالمين، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[١]، وحتى لا يحتج أحد على الله فيقول: ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[٢].

وما بعث الله رسولاً إلا أيده بالآيات الدالة على صدق رسالته وصحة دعواه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾[٣]، وقال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة»[٤].

فآيات الأنبياء هي الآيات التي يتحدى الله بها البشر أن ياتوا بمثلها، ويكون ذلك تأييداً لأنبيائه.

قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معجزات الأنبياء هي الآيات التي أعجزوا بها البشر أن يأتوا بمثلها، والله تعالى يسميها آيات، وهي علامات دالة على صدق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فيما جاؤوا به من الرسالة"[٥].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أن طريقة الاستدلال بالآيات الكونية المأخوذة عن طريق الحس لمن شاهدها، واستفاضة الخبر لمن غاب عنها، وأنها من أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، ودلالة ذلك على تأييد الله لأنبيائه: " وهذه الطريق من أقوى الطرق

---

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) طه: ١٣٤.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: "بعثت بجوامع الكلم": ١٣٨٧ برقم (٧٢٧٤).

(٥) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٣٠٣/٥، وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٢٤٢/٣.

وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانا عظيما يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا"...

ثم ذكر بعض الأمثلة، ثم قال: " وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر"(١).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان كيف يقرر القرآن نبوة محمد ﷺ، وأنه يكون أحيانا عن طريق الآيات الكونية: " وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدالِّ كل واحد منها بمفرده – فكيف إذا اجتمعت – على أنه رسول الله ﷺ، الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى"(٢).

وقال أيضا في بيان آيات الرسل والفرق بينها وبين طلبات واقتراحات المكذبين، وكيف يكون تأييد الله لرسله: " القاعدة الخمسون: آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها، وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات، وإنما هي تعنتات وتعجيزات.

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات: وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل، وعلى صدق كل خبر أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه"(٣).

وقد ذكر الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد آيات الأنبياء: "أنها دليل على قدرة الله، وأنها دليل على صحة ما جاءت به الرسل، وأنه لا يمكن للمرء إلا أن يصدق برسالة الرسول

(١) مختصر الصواعق المرسلة: ٢/٤٨٧-٤٩٠ باختصار.

(٢) القواعد الحسان: ٢٩، ٤٢.

(٣) المصدر السابق: ١٠٦.

الذي جاء بها حيث جاء بما لا يقدر عليه أحد سوى الله ﷻ "[١].

ثم بين من فوائد هذه الآيات أيضاً: " بيان رحمة الله بعباده، فإن هذه الآيات التي يرونها مؤيدة للرسل تزيد إيمانهم وطمأنينتهم لصحة الرسالة، ومن ثم يزداد يقينهم وثوابهم ولا يحصل لهم حيرة ولا شك ولا ارتباك"[٢].

فرحمة الله بالرسول الذي أرسله حيث ييسر قبول رسالته بما يجريه على يديه من الآيات ليتسنى إقناع الخلق بأمور لا يستطيعون معارضتها ولا يمكنهم ردها إلا جحودا وعنادا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، أي لما يرون من الآيات الدالة على صدقك.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٣] أي ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم[٤].

ومن الآيات التي حصلت للنبي محمد ﷺ تأييدا له من الله ﷻ : " ما أظهره الله شاهداً على صدقه من الآيات الأفقية كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٥] ؟.

ولذلك أمثلة:

المثال الأول: انشقاق القمر، فقد انشق القمر وصار فرقتين، وشاهد الناس ذلك، وقد أخبر الله عن ذلك في القرآن، فقال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٥/٣٠٤.

(٢) المصدر السابق: ٥/٣٠٥.

(٣) الأنعام: ٣٣.

(٤) انظر: : تفسير ابن كثير: ٢/١٣٤.

(٥) فصلت: ٥٣.

مُّسْتَقِرٌّ ﴾[١]، وقد أجمع العلماء على وقوع ذلك في عهد النبي ﷺ قبل الهجرة، وقد رآه الناس بمكة. وقال النبي ﷺ حين رآه: « اشهدوا، اشهدوا»[٢]، وقدم المسافرون من كل وجه فأخبروا أنهم رأوه"[٣].

والمثال الثاني: " نزول المطر باستسقائه مباشرة، وإقلاع المطر باستصحائه مباشرة"[٤]، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " أصابت سنة – أي جدب – على عهد رسول الله ﷺ، فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة[٥]، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، ومن بعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره، فقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا. فرفع يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة[٦]، وسال الوادي وادي قناة[٧] شهراً، ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود"[٨].

ومن الآيات الكونية التي أخبر ﷺ بأنها ستقع، ووقعت كما أخبر: "إخباره ﷺ عن ظهور نار في أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى[٩]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

---

(١) القمر: ١-٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر: ٤/٢١٥٨-٢١٥٩ برقم (٢٨٠٠، ٢٨٠٢).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٥/٣١١-٣١٢.

(٤) المرجع السابق: ٥/٣١٣.

(٥) القزعة: بفتح القاف والزاي بعدها مهملة، أي سحاب متفرق. فتح الباري: ٢/٥٠٣.

(٦) الجوبة: بفتح الجيم ثم الموحدة، وهي الحفرة المستديرة الواسعة، والمراد بها هنا الفرجة في السحاب. فتح الباري: ٢/٥٠٦.

(٧) قناة: بفتح القاف والنون الخفيفة علم على أرض ذات مزارع بناحية أحد، ووادیها أحد أودية المدينة المشهورة. فتح الباري: ٢/٥٠٦.

(٨) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة: ١٨٦ برقم (٩٣٣).

(٩) بصرى: بضم الباء مدينة معروفة بالشام، وهي مدينة حوران، بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل، ١٤٠ كم.

«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى»[١]. فقد خرجت هذه النار[٢] في جمادى الآخرة سنة ٦٥٤هـ شرقي المدينة فأقامت نحواً من شهر وملأت تلك الأودية وشاهد الناس أعناق الإبل ببصرى"[٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذه النار كانت تحرق الحجر"[٤].

انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ٣٠/١٨، وبلدان الخلافة الشرقية لكي لسترنج: ٧٢.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز: ٢٢٢٧/٤ برقم (٢٩٠٢).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ٢٨/١٨، والبداية والنهاية لابن كثير: ٣٢٨/١٧.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٣١٤/٥.

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٩٦/٢.

المطلب الرابع: الآيات الكونية وأركان الإسلام

أولاً: الآيات الكونية والشهادتان:

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات الكونية، وصور من نشأتها ومراحل تكونها، والسنن الإلهية التي تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة وتفهم للحكمة، وما يستوجبه من إيمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله، وهو ﷻ الخالق البارئ المصور الذي أبدع الخلق بعلم وقدرة وحكمة. وهي مع ذلك دليل على صدق نبوة محمد ﷺ.

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر تقرير الله ﷻ لربوبيته وإلهيته، وذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات: "وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحياته وقيوميته. وما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع والحسن دال على كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه. وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود والمحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام"(١).

أما المكتشفات العلمية فهي دالة على الربوبية من جهة التفاصيل الدقيقة المؤكدة على افتقار الكون إلى خالق مدبر، دون أن تكون معرفة هذه التفاصيل شرطاً في كمال اليقين، كما تعتبر هذه المكتشفات دالة على النبوة من جهة عدم تكذيبها لشيء مما جاء به النبي ﷺ(٢).

---

(١) تفسير ابن سعدي: ٥٥١/٢، ٦٩٩، وانظر: الفوائد: ٣٢-٣٣.

(٢) منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية، لسعود العريفي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج (١٩)، العدد (٤٣)، ذو الحجة ١٤٢٨: ٢٨٧.

ثانياً: الآيات الكونية والصلاة[١].

إن الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، ونجد أن لها ارتباطاً وثيقاً بالآيات الكونية، وأول ما يذكر الفقهاء من شروط الصلاة الوقت وتحديده، وهو مرتبط ببعض الآيات الكونية، فصلاة الظهر مثلاً إذا زالت الشمس، وصلاة المغرب إذا غربت، وهكذا بقية الصلوات الخمس تعرف أوقاتها بهذه الآيات الكونية[٢].

وأفضل الصلاة صلاة جوف الليل[٣]. وصلاة العيد من ارتفاع الشمس قيد رمح إلى الزوال[٤].

وقد جاء النهي عن الصلاة في بعض الأوقات: عند طلوع الشمس حتى ارتفاعها قيد رمح، وعند غروبها لأن المشركين يسجدون لها، وعند انتصاف النهار لأن النار تسجر[٥].

ومن شروط الصلاة القبلة، وقد اتفق الفقهاء على أن الشمس والقمر والنجوم — وهي من الآيات الكونية – من دلائل القبلة التي تعرف بها[٦]،كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾[٧].

وتشرع بعض الأحكام المتعلقة بالصلاة عند حصول بعض التغيرات الكونية، فيجوز الجمع بين الصلاتين عند نزول المطر[٨]، وفي شدة الحر يشرع تأخير صلاة الظهر[٩]. وتشرع صلاة

---

(١) انظر: أثر القمرين في الأحكام الشرعية لعبد المجيد اليحيى: ٥٦ وما بعدها.

(٢) المغني لابن قدامة: ٢/٨-٣٢.

(٣) المصدر السابق: ٢/٥٥٥.

(٤) المصدر السابق: ٣/٢٦٦.

(٥) المصدر السابق: ٢/٥٢٣-٥٢٧.

(٦) انظر: المصدر السابق: ٢/١٠٢-١٠٥.

(٧) النحل: ١٦.

(٨) المصدر السابق: ٢/١٣٢.

(٩) المصدر السابق: ٢/٣٥.

الاستسقاء إذا أجدبت الأرض واحتبس القطر[١].

والصلاة مشروعة إذا كسفت الشمس أو خسف القمر[٢]، مع تغير في صفتها عن الصلاة المعتادة حيث زيد في عدد الركوعات، فصلى النبي ﷺ صلاة الكسوف أربع ركوعات في ركعتين[٣].

ولو تأملنا في نفس الصلاة لوجدنا أن النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح يقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»[٤].

وفي صلاة الليل يقول في استفتاحه متوسلاً إلى الله ﷻ بخلقه لهذه الآيات الكونية العظيمة: «فاطر السماوات والأرض»[٥].

وإذا رفع من الركوع قال: «الحمد لله ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما»[٦]، إلى غير ذلك.

ثالثاً: الآيات الكونية والزكاة:

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وتجب بشروط منها تمام الحول. وإذا أطلق الحول والسنة عند الفقهاء فالمراد به السنة القمرية، والسنة القمرية هي التي تعتمد على ظهور الهلال واختفائه في بداية الشهر ونهايته[٧].

وترتبط بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالزكاة بالآيات الكونية، فيختلف مقدار الزكاة في

---

(١) المصدر السابق: ٢/٣٣٤.

(٢) المصدر السابق: ٢/٣٢٠-٣٢٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف في المسجد: ٢١٠ برقم (١٠٥٥).

(٤) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبير الإحرام والقراءة: ١/٤١٩ برقم (٥٩٨).

(٥) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه: ١/٣٤ برقم (٧٧٠).

(٦) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام: ١/٣٤٣ برقم (٤٧١).

(٧) المغني: ٤/١٤٠.

الزروع والثمار بحسب السقي، ففيما سقت السماء والعيون العشر، وما سقي بالنضح نصف العشر[١].

وتجب زكاة الفطر بغروب شمس أخر يوم من رمضان، فمن ولد قبل غروب الشمس من أخر شهر رمضان وجب على وليه إخراج زكاة الفطر عنه، ومن ولد بعدها فلا تجب عليه[٢].

رابعاً: الآيات الكونية والصيام:

الصيام هو الركن الرابع من أركان الإسلام، ويثبت دخول شهره وخروجه برؤية الهلال أو إكمال عدة شعبان ثلاثين يوماً.

وقد ورد عند رؤية هلاله أدعية مأثورة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة[٣].

والصوم المشروع هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس[٤].

والنية لصيام الفرض تبيت من الليل[٥].

خامساً: الآيات الكونية والحج:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وأول أشهر الحج شوال[٦]، ويثبت دخوله برؤية هلاله أو إكمال عدة رمضان ثلاثين يوماً، ويثبت دخول شهر ذي الحجة برؤية هلاله أو إكمال عدة ذي القعدة ثلاثين يوما.

---

(١) المصدر السابق: ٤/١٦٤.

(٢) المصدر السابق: ٤/٢٩٨.

(٣) انظر: أحكام الأهلة والآثار المترتبة عليها وتطبيقاتها القضائية لأحمد الفريح: ٢٩.

(٤) المغني: ٤/٣٢٥.

(٥) المصدر السابق: ٤/٣٣٣.

(٦) المصدر السابق: ٥/١١٠.

ويستحب للمحرم الإكثار من التلبية إذا علا مرتفعاً، أو هبط وادياً، ومن أخر الليل[١].

وإذا طلعت الشمس اليوم التاسع دفع الحاج إلى عرفة، والسنة لمن جاء عرفة أن ينزل بنمرة كما فعل النبي ﷺ إلى أن تزيغ الشمس، فإذا زاغت صلى الظهر والعصر جمع تقديم، ثم أتى الموقف[٢].

ومن وقف في عرفة من ليل أو نهار صح حجه، ومن لم يقف بعرفه حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج، والوقوف إلى غروب الشمس واجب، ويدفع الناس من عرفة بعد غروب الشمس[٣].

ويبدأ الانصراف من مزدلفة للضعفة بعد مغيب القمر، وقيل بعد منتصف الليل، ولغيرهم قبل طلوع الشمس[٤].

وقد قال النبي ﷺ في يوم النحر في حجة الوادع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر بين جمادى وشعبان»[٥].

ويبدأ رمى الجمرات بعد زوال الشمس من اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر لمن تأخر[٦].

وإن أحب أن يتعجل في يومين خرج قبل غروب الشمس من اليوم الثاني عشر، وإن غربت الشمس وهو بها لم يخرج حتى يرمي من غد بعد الزوال[٧].

فأنت ترى أن أعمال الحج لها ارتباط واضح بهذه الآيات الكونية، إما في بداية العمل أو

---

(١) المصدر السابق: ٥/١٠٥-١٠٦.

(٢) المصدر السابق: ٥/٢٦٢.

(٣) المصدر السابق: ٥/٢٦٨.

(٤) المصدر السابق: ٥/٢٨٤-٢٨٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوادع: ٨٣٢ برقم (٤٤٠٦).

(٦) المغني: ٥/٣٢٦.

(٧) المصدر السابق: ٥/٣٣١.

نهايته أو خلاله.

المبحث الثالث

الضوابط الشرعية تجاه الآيات الكونية

للتعامل مع الآيات الكونية ضوابط شرعية يجب الالتزام بها، منها:

١ – الإيمان بجميع ما جاء في القرآن والسنة عن الآيات الكونية مما شهدناه أو غاب عنا، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه مما صح به النقل(١)، وإن خالف نظريات العلم الظنية(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن علم الدين طلباً وخبراً لا ينال إلا من جهة الرسول ﷺ، وأما العلم بالكونيات فأسبابه متعددة، وما اختص به الرسل وورثتهم أفضل مما شركهم فيه بقية الناس"(٣).

وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ – في تعليقه على حديث الذباب الذي رواه البخاري في صحيحه(٤) بعد أن بين ثبوته، ورد على من طعن في راوي الحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: "فهذا هو التحقيق العلمي يثبت أنه بريء من كل ذلك وأن الطاعن فيه هو الحقيق بالطعن فيه؛ لأنهم رموا صحابيا بالبهت، وردوا حديث رسول الله ﷺ لمجرد عدم انطباقه على عقولهم المريضة !

ونحن بصفتنا مؤمنين بصحة الحديث وأن النبي ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾(٥)، لا يهمنا كثيرا ثبوت الحديث من وجهة نظر الطب؛ لأن الحديث برهان قائم في نفسه لا يحتاج إلى دعم خارجي ومع ذلك فإن النفس تزداد إيمانا حين ترى الحديث الصحيح يوافقه العلم الصحيح" (٦).

٢ – أن الله هو المتفرد بالخلق، والمتصرف في الكون، وقد بين الله ذلك أتم البيان، قال

---

(١) انظر: لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة: ٢١.

(٢) الدين والعلم، وهل ينافي الدين العلم؟ لمصطفى الغلاييني: ٣٢.

(٣) مجموع الفتاوى: ١١/٣٢٧.

(٤) كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء: ٦٣٣ برقم (٣٣٢٠).

(٥) النجم: ٣-٤.

(٦) السلسة الصحيحة: ١/٩٥-١٠١ باختصار.

تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٢)، وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾(٣).

٣ – أن هذه الآيات الكونية لا تخرج عن قضاء الله وقدره ولا عن مشيئته وإرادته، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾(٥).

٤ – أن كل ما ورد في النصوص الشرعية من الآيات الكونية فهو لبيان كمال قدرة الله وحكمته(٦)، وتذكير للناس بنعم الله تعالى عليهم ليشكروه حق شكره، وليعبدوه حق عبادته(٧).

فذكر الآيات الكونية في القرآن في سياق العظة للاعتبار، وفي مورد الإرشاد للاستدلال على قدرة الخالق وحكمته في مخلوقاته، ليوجه الإنسان ببصيرته إلى خالقه، فيسبحه ويمجده ويعبده

---

(١) الأنعام: ٧٣.

(٢) الأحقاف: ٤.

(٣) الحج: ٧٣.

(٤) القمر: ٤٩.

(٥) الأعلى: ١-٣.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٥١٧/٢.

(٧) الأجزاء الكونية بين النقل والعقل: ١٢.

حق عبادته[١].

ولذلك لا يجوز التكلف فيها ما لا علم للإنسان به والتأويل فيها بغير ما أنزل الله تعالى، كما قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: " خلق هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به"[٢].

٥ – أنه ليس في النصوص الصحيحة ما ينافي العلم الكوني الصحيح، ولا ما يناهض ما أثبته البرهان الساطع، وقام عليه الدليل القاطع[٣]، بل إن فيه إشارات تدعمه وتثبت رجحان ما يذهب إليه[٤].

٦ – أن من الآيات الكونية ما لا يمكن العلم به إلا عن طريق النصوص الشرعية الثابتة، ولا مجال للاجتهاد فيه لأن الله قد استأثر بعلم ذلك، كطلوع الشمس من مغربها آخر الزمان، وأهوال يوم القيامة.

ومنها ما يدرك بالحس والمشاهدة، وهذه لا تحتاج إلى دليل شرعي، مثل أن الشمس مضيئة وذات حرارة[٥].

ومنها ما يدرك بالنظر والاستدلال، كمعرفة وقت الكسوف والخسوف[٦].

وعلى هذا فالعلوم الكونية تبنى على أصلين، إما نص شرعي تؤخذ منه الدلالة بصريح لفظ أو مفهوم، وإما محسوس تدركه الحواس البشرية وتصدقه النصوص الشرعية لأنها لا تخالفه في منطوق ولا مفهوم.

---

(١) الدين والعلم، وهل ينافي الدين العلم؟: ٣٠.

(٢) رواه البخاري معلقاً: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم: ٦١٤.

(٣) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: ٥٣٨/٢، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم: ٨٢٩/٣.

(٤) الدين والعلم، وهل ينافي الدين العلم؟: ١٣، الأجزاء الكونية بين النقل والعقل: ١٢

(٥) انظر: شرح السنة للبغوي: ١٨٣/١٢، ط٢، والأجزاء الكونية بين النقل والعقل: ١٠.

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ١٧٨/١.

فمرجع القبول لكل العلوم القديمة والحديثة التي تتعلق بالآيات الكونية قام على إحدى قاعدتين، إما النقل الصحيح أو العقل الصريح، إذ لا تخالف بينهما.

٧ – عدم الخوض في الأمور الغيبية والوقوف مع النصوص الشرعية[١]، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[٣].

٨ – أن ما سكتت عنه النصوص الشرعية من ظنيات العلم – أي الكوني –، فلا شيء يمنعنا أن نسلم به، حتى يجيء من العلم – أي الكوني – ما يناقضه[٤].

٩ – أن هذه الآيات الكونية لحدوثها أسباب حسية، فنزول المطر سبب لحياة الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٥]، وأسباب معنوية، قال تعالى –مبيناً أن الاستغفار من أسباب نزول الأمطار–: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾[٦].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٤/١٩٠.

(٢) النمل: ٦٥.

(٣) الكهف: ٥١.

(٤) انظر: الصواعق المرسلة: ٣/٨٣٠، ٧٩٨، الدين والعلم، وهل ينافي الدين العلم؟: ٣٣.

(٥) البقرة: ١٦٤.

(٦) نوح: ١٠-١٢.

١٠ – ما أوتيه الإنسان من علم الآيات الكونية فإنه محدود بما أراده الله تعالى لتقوم الحجة على خلقه بما يظهره لهم من الآيات البينات التي تدل على عظمة هذا الكون وعظمة خالقه[١]، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾[٣].

١١ – التثبت من حقائق العلم وعدم إقحامها في غير موضعها في القرآن والسنة، والواجب عند تفسير الآيات الكونية في القرآن أو السنة بالعلم الحديث، أن لا تخالف هذه التفاسير العلمية النصوص الشرعية، ولا تفاسير السلف، مع مراعاة الشروط والضوابط العامة للتفسير[٤].

وأنقل كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى– وهو كالقاعدة الكلية للتعامل مع جميع العلوم الدنيوية، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فصل في جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجاة، وطريق الشقاوة والهلاك: أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان فيُصدّق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملا، لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده، ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه، أو تكذيبه؛ فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم. والعلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول...

فالرسول أعلم الخلق بها، وأرغبهم في تعريف الخلق بها، وأقدرهم على بيانها وتعريفها، فهو

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩/١٤، الأجزاء الكونية بين النقل والعقل: ٢٠.

(٢) الإسراء: ٨٥.

(٣) الروم: ٧-٨.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٨٥/٤-١٨٨، والآيات الكونية في ضوء العلم الحديث، لمنصور محمد: ٥٣، والإعجاز العلمي في القرآن لسامي الموصلي: ٤٠.

فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود، ومن سوى الرسول إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه، إما لرغبة وإما لرهبة وإما لغرض أخر، وإما أن يكون بيانه ناقصا ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان"[١].

(١) رسالة الفرقان بين الحق والباطل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى: ١٠٢/١.

فهرس الموضوعات

الموضوع ..... الصفحة

المقدمة..... ٢

المبحث الأول: الأمر بالتفكر في آيات الله الكونية، وأهميته ٤

المطلب الأول: الأمر بالتفكر في آيات الله الكونية..... ٥

المطلب الثاني: أهمية التفكر في آيات الله الكونية ١٠

المطلب الثالث: الحكمة من الآيات الكونية..... ١٥

المطلب الرابع: الآيات الكونية وتثبيت العقيدة ١٧

المطلب الخامس: عبودية الكائنات لرب العالمين ٢٤

المبحث الثاني: الهدي القرآني والنبوي تجاه الآيات الكونية ٣٣

المطلب الأول: الهدي القرآني تجاه الآيات الكونية ٣٤

القسم الأول: الهدي المتعلق بذات الآيات الكونية..... ٣٥

القسم الثاني: الهدي المتعلق بطريقة القرآن الكريم في عرضها وأسلوب ذكرها وإيرادها. ٤٠

القسم الثالث: الهدي المتعلق بالغرض والغاية الذي سيقت لأجله تلك الآيات الكونية..... ٥٣

المطلب الثاني: الهدي النبوي تجاه الآيات الكونية ٦٠

القسم الأول: الهدي المتعلق بذات الآيات الكونية..... ٦٣

القسم الثاني: الهدي المتعلق بطريقة السنة في عرضها للآيات الكونية وأسلوب ذكرها وإيرادها. ٦٤

القسم الثالث: الهدي المتعلق بالغرض والغاية الذي سيقت لأجله تلك الآيات الكونية..... ٦٦

المطلب الثالث: تأييد الله لأنبيائه بالآيات الكونية ٦٩

المطلب الرابع: الآيات الكونية وأركان الإسلام..... ٧٤

المبحث الثالث: الضوابط الشرعية تجاه الآيات الكونية ٨٠

فهرس الموضوعات ٨٧